عدد **14** ديسمبر (2000)، 87-96

مساهمة الأمير عبد القادر في النهضة العربية الحديثة

ملخص

شكلت مسألة البحث في الدولة العربية الحديثة - باعتبارها أهم الركائز الأساسية للفكر السياسي الحديث والمعاصر - اهتمام كثير من الباحثين سواء كانوا عربا مسلمين أم غيرهم، وتعددت آراؤهم في منبع وأصول الدولة الوطنية العربية الحديثة، فمنهم من أرجعها إلى أصول غربية، ومنهم من أرجعها إلى أصول عربية وهؤلاء الذين يمثلون التيار الأخير فإنهم يختلفون في أول منطقة ظهرت فيها في العالم العربي الإسلامي، فهل كان ذلك في المشرق العربي أم كان في المغرب العربي؟ ولعنا في هذا المقال سنلقي الضوء على دور شخصية عربية إسلامية كانت من السباقين بلا منازع إلى تأسيس ما عرف بالدولة الوطنية، وأعني بذلك شخصية الأمير عبد القادر الجزائري، وبذلك نبرز مساهمته في النهضة العربية الحديثة التي يعد من أعمدتها.

د. إسماعيل زروخي
قسم الفلسفة
جامعة منتو ري
قسنطينة (الجزائر)

إن مسألة البحث في تحديد مفهوم الدولة الوطنية وأصالتها في الفكر العربي الإسلامي عموما وفي فكر الأمير عبد القادر خصوصا تعد من بين أهم المسائل التي شكلت انشطارا وانشقاقا في الفكر الإصلاحي ذاته وفي دراسات المهتمين به، وذلك نتيجة للاختلاف حول تحديد المفاهيم الأساسية التي امتدت أزمتها في الصيرورة التاريخية منذ فترة زمنية طويلة، حيث أن تحديد المفاهيم التي تأسست عليها النهضة كانت محور اختلاف بين المفكرين والباحثين، أي هل يمكن إرجاع النهضة إلى الإصلاح الاجتماعي أم السياسي أم كليهما معا؟، أم يعود إلى الإصلاح الاقتصادي والثقافي؟ وهل يتوجه ذلك إلى المجتمع ومؤسساته؟ أم إلى الدولة و مؤسساتها؟، ولإماطة اللثام عن هذه الإشكالية في الفكر العربي الإسلامي، وفي ممارسته سنعتمد في ذلك على مرجعية نقارن فيها إسهامات المفكرين العرب المسلمين في أقطار مختلفة من حيث موقعها الجغرافي

Résumé

Le problème de l'état arabe moderne a toujours été un sujet de recherches diverses, que se soit sur son origine ou sur sa structure. Et c'est dans aucun doute que la contribution de l'Emir Abd-El-Kader El Djazairi, dans ce domaine, sur le plan intellectuel et sur le plan pratique, nous permet d'approfondir nos connaissances sur l'origine et la structure de l'état arabe moderne et contemporaine.

©جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر2000

ومستواها الحضاري، ولكنهم يشتركون في المرحلة الزمنية لبداية النهضة.

وقد اعتادت كثير من الدراسات والأبحاث في مسألة تحديد الموقع الجغرافي للنهضة العربية الإسلامية أن تلك الدراسات والأبحاث تهمل وتبعد مساهمة المغاربة في هذه المهمة الحضارية ولا سيما ما قدمه رواد النهضة الجزائرية وأقصد بذلك الأمير عبد القادر الجزائري وغيره من روادها، ولتحديد إطار هذه المساهمة الجزائرية سنحاول أولا إبراز بداية الأزمة العربية الإسلامية التي تولدت عنها كثير من المشاكل العربية الإسلامية ولاسيما ظهور الاستعمار الحديث وسيطرته على أغلب مناطق الدولة العربية الإسلامية، كما أننا سنبرز كيفية إعادة بعث النهضة العربية الإسلامية من جديد.

أولا: بداية الأزمة:

إن الأزمة العربية الإسلامية الحديثة تبدو من وجهة نظرنا مع " إبن خلدون " في القرن الرابع عشر الميلادي (1) ـ الثامن الهجري ـ وليس مع حملة نابليون على مصر كما يعتقد الكثير ، وما يولونه من أهمية لتلك الحملة على اعتبار أنها حملت مظاهر حضارية مختلفة ،لأننا إذا أمعنا النظر أكثر نقول أن إشكالية " إبن خلدون " الحضارية التي اشتملت عليها مقدمته تمثلت في قيام الدول وأفولها، قوتها وضعفها، وأن هذه المسائل المتعلقة بالدولة والمرتبطة بها والتي أشار إليها ابن خلدون هي عينها التي أسست لبداية النهضة الحديثة سواء عند الغربيين أو عند العرب المسلمين، فقد كانت الدولة الهاجس الأكبر عند المفكرين العرب النهضويين المحدثين والمعاصرين على السواء، وذلك منذ أن اتصل الإسلام بالغرب، ومنذ أن وعى أولئك المفكرون الهوة التي تفصل عالم الإسلام عن عالم الغرب ،وهي القضية الجوهرية نفسها التي دارت حولها ـ المقدمة ـ أي قيام الحضارات وانهيارها أو بعبارة أخرى البحث عن صيغة مثلى للأمة أو للدولة العربية الإسلامية التي يمكن لقيامها تجنيب أمة العرب استمرارية التقهقر والانهيار والضعف و تحقق لها الإنعتاق من حالة الانحطاط، وأن تواجه بها كل التحرشات الداخلية والخارجية التي تبحث عن إزالتها من الوجود، ومن ثمة تدمجها في التاريخ العالمي وفي ديناميكيته كقوة فاعلة ترفع بها من أمة انطواء وانغلاق إلى أمة انفتاح وفاعلية.

إن هذا الاهتمام بالبحث عن فاعلية الأمة العربية الإسلامية واضح تمام الوضوح في القرن التاسع عشر ـ قرن النهضة ـ إن أقررنا ببدايتها من هذا القرن في أعمال المفكرين البارزين في العصر الحديث، من " رفاعة الطهطاوي " إلى " إبن باديس " مرورا بالأمير عبد القادر الجزائري وخير الدين التونسي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم كثيرون، الذين ساهموا جميعا في محاولة إحياء الأمة العربية وبعث نهضتها من جديد، وهي التي كما يرى" برهان غليون" (2) أن انبعاثها يرجع إلى عاملين أساسيين: أولهما الدين الإسلامي والثقافة العربية، وثانيهما الفكر العقلي الحديث الذي حرك الفكر الإسلامي وهزه بقوة في القرن التاسع عشر.

ثانيا: بداية النهضة:

إننا إذا حاولنا تحديد عناصر النهضة العربية الإسلامية في القرن التاسع عشر سنأخذ لذلك نموذجين اثنين: يتعلق الأول منهما بالفكر التنظيري، والثاني يتعلق بالجانب العملي الممارساتي، يمثل هذا النموذج الثاني الأمير عبد القادر الجزائري، أما النموذج الأول فيمثله " رفاعة الطهطاوي " ويكون " خير الدين التونسي " النموذج المشترك بينهما، أي بين ما هو تنظيري وممارساتي، وعلى ضوء هذه المقارنة نلاحظ أن الطهطاوي قدم لنا مجموعة من المبادئ الفكرية رآها أساسا للنهضة تستطيع إنقاذ العالم العربي الإسلامي من سباته وانطوائه، وكانت تلك المبادئ نظرية أكثر منها عملية أي لم تتجسد على مستوى الممارسة، لأن الرجل كان بعيدا عن سدة الحكم وعن مصدر القرار الذي يستطيع أن يحول الفكرة إلى ممارسة، وبالتالي فإنه كان منظرا أكثر منه ممارسا، ولم تتجسد أفكاره. أما بالنسبة " لخير الدين التونسي " فإنه كان منظرا وممارسا في آن واحد، أي كان مفكرا كما كان ممارسا للسياسة من خلال المناصب التي كان يشغلها، ولكنه أيضا واجه نفس الصعوبة التي واجهها الطهطاوي، أي أن أفكاره لم يكتب لها النجاح على مستوى الممارسة سواء في بلده تونس أو في مركز الخلافة بتركيا (3)، وذلك لعدة اعتبارات داخلية وخارجية.

ورغم كل ذلك فإن كثير من الدراسات (4) التي اهتمت بعصر النهضة العربية تعتبرهما نموذجا لها وتهمل مساهمة الأمير "عبد القادر" الجزائري في تلك النهضة والذي أعتقد أنه مثل في شخصه نمط الرجلين معا فهو كان منظرا وممارسا في وقت واحد، واستطاع أن يجسد نموذجا في الحكم يهرع إليه في كل المجالات التي شكلت عناصر دولته.

ثالثا: النهضة العربية وعلاقتها بالغرب:

إذا حاولنا تحديد المنطلقات الأساسية لمفكري النهضة العربية الإسلامية فإننا نجد الكثير منهم قد سافر إلى الغرب واحتك بحضارته وتأثر بها بما في ذلك " الطهطاوي " و "خير الدين التونسي"، ولكن يمكننا في ذلك استثناء الأمير" عبد القادر الجزائري " الذي لم تتح له الظروف للسفر إلى الغرب ومعايشة حضارته باستثناء الفترة التي قضاها في السجون الفرنسية، ولذلك فإن المنطلقات الفكرية لكل من الطهطاوي وخير الدين التونسي وغيرهما كانت من الآخر ومن فكره وفلسفته، وأبلغ مثال تجلت فيه فلسفتهما ذات المظاهر الغربية هي أفكار " مونتسكيو " وفلاسفة التنوير، وذلك لا يعد عيبا في فكر أولئك المفكرين، لأن واقعهم العربي الإسلامي في ذلك الوقت لا نجد فيه من الملامح الفكرية والثقافية التي قد تشكل لهم واقعا خاصا يكون نبراسا لفكرهم وإبداعاتهم.

فالطهطاوي حين نقل إلى اللغة العربية فإن من جملة ما نقله من الغرب هو كتاب " مونتسكيو " "تأملات في أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم "، وكذلك دستور فرنسا

وما يحتويه من مظاهر الليبرالية، أما خير الدين التونسي فإنه عندما ألف كتابه "أقوم المسالك ..." (5) فقد ضمنه في الأخير بدراسة عامة وشاملة لممالك أوربا في ذلك الوقت وعظمة حضارتها، وبالتالي نقول أنهما في دراستهما للذات العربية الإسلامية لم ينطلقا من واقعهما بقدر ما كان الآخر هو محور التفكير عندهما وإسقطاه على ذاتهما، ومن ثمة فإن محور فلسفتهما وفكرهما لا يستند إلى واقعهما بقدر ما يستند إلى واقع الآخر، لأن "الطهطاوي " لم يبدأ يفكر في الذات العربية الإسلامية ويحاول إيجاد حلول لمشاكلها إلا بعد أن توفرت له ظروف الاستقرار والإقامة في باريس، وفيها أدرك ما كانت عليه الحضارة الغربية، ومن خلالها حاول إسقاط تلك الملامح الحضارية على مجتمعه المصري، ونفس الشيء حدث "لخير الدين التونسي"، فإنه لم يستقرئ واقع مجتمعه إلا بعد الزيارات المتكررة، والإقامات المختلفة في الممالك الأوروبية والتي قال بشأنها وبشأن حضارتها: ((إن التمدن الأوربـاوي تدفق سيله في الأرض فلا يعارضه شئ إلا استأصلته قوة تياره المتتابع فيخشى عن الممالك المجاورة لأوربا من ذلك التيار إلا إذا حذوا حذوه، وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية فيمكن نجاتهم من الغرق)) (6) .

وعلى ضوء ما سبق فإن "الطهطاوي " و" خير الدين التونسي" وقفا على هوة الإنفصال بين واقع الدولة العربية ومثيلاتها في الغرب، وهذا ما أدى بالأول في منتصف القرن التاسع عشر إلى تشجيع مطبعة الحكومة في بولاق على نشر مقدمة إبن خلدون، ولم يكن في واقع الأمر يبغي إلا أمرا واحدا، وهو التصدي لمشكلة القوة والضعف، العظمة والانحطاط، قيام الدولة وانحطاطها، أي بصورة إجمالية عالم الغرب والإسلام.

فالدولة التي كان يدعو إليها "الطهطاوي " هي التي كان قد دعا إليها "ابن خلدون" من قبل وهي التي تستطيع أن تجمع بين الخلق الديني وهي فكرة خلد ونية، وبين التقدم المادي الذي لا يقف عند حد وهي فكرة تنويرية وهي التي كان متشبعا بها، وهذه الدولة هي الوحيدة التي تستطيع أن تنهض بالأمة، وتصل بها إلى حالة التمدن والازدهار.

وهذا ما حاول أيضا "خير الدين التونسي" إبرازه في مؤلفه من تقسيمه للأنظمة السياسية، والتي تأخذ في معناها المعنى الخلد وني والتنويري معا، حيث أشار إلى ثلاثة أنواع من الحكم أو بتعبير ابن خلدون "الملك" وهي: الملك المطلق، الملك الجمهوري، الملك المقيد بقانون (شرعي أو عقلي سياسي)، وهذه الأنواع منها ما هو مستمد من المقدمة الخلد ونية، كالملك الطبيعي والسياسي، ومنها ما هو مستمد من آراء فلاسفة التنوير" الملك الجمهوري "، ومن ثم فإن " الطهطاوي " و" خير الدين التونسي " باعتمادهما على الغرب،ودراستهما لمقدمة إبن خلدون التي لم تعد كشفا وتعريفا به فحسب، بل هي أيضا تعديل لنظريته الرئيسية ونقد لها، و لكن رغم تلك المجهودات والمحاولات التي قاما بها، فإن فكرهما حسب اعتقادنا لا يمثل إلا فكر على فكر أو مشكلات على مشكلات لأنهما لم يستطيعا تجاوز ما دعيا إليه، عكس ما أحدثه الأمير عبد القادر الذي استطاع أن يحول الفكر إلى ممارسة والمشكلة إلى علاج، وهذا ما

سيتضح فيما قدمه من ممارسة سياسية اصطبغت بصبغة وطنية متميزة وواضحة والتي كانت هي مظهر الحضارة الحديثة.

رابعا: الأمير عبد القادر وتأسيسه للدولة الحديثة:

إننا إذا تحدثنا عن الأمير "عبد القادر " وتأسيسه للدولة فإن الدولة التي أسسها لم تكن إلا الدولة الوطنية الحديثة التي قام فيها بمقارنة كبيرة في الفكر العربي الإسلامي وفي ممارساته، حيث أنه اطلع على كثير من التراث العربي الإسلامي و في كثير من المسائل التي واجهته في صيرورته ، كما أنه اطلع على كثير من الأحداث التاريخية التي مرت بها الدولة العربية الإسلامية (7) ولكنه استطاع تجاوز تلك الممارسات السياسية التي حدثت في العالم العربي الإسلامي في عصر النهضة أو قبله، و كان ذلك من وجهة نظرنا نتيجة وعي شخصي نابع من محيطه وواقعه لأنه لم يكتب له أن سافر كغيره من العرب إلى الغرب، ولم يقم بأوربا ولم يتأثر بواقعها، ومن ثم فإن ما قام به كان ينم عن إدراك فكري عميق يعبر عن ملاحظاته ومعاناته ومعاناة مجتمعه، ولذلك فإن محور تفكيره لم يكن منطلقا لا من الآخر ولا من واقعه، وإنما كان منطلقا ذاتيا يعبر عن ذات استطاعت أن تدرك ما هي عليه وما هو واقع الأمة التي تعيش فيها تلك الذات، وحاول تجاوز ذلك الواقع بأن يعيد للأمة مجدها وعزها، و من ذلك استطاع بعمله ومنجزاته أن يصد كل الادعاءات والمزاعم التي ترى أن الأمة الجزائرية لم تكن لها دولة أبدا، وأنها عاجزة عجزا فطريا عن تكوين دولة (8)، رغم أن الدولة الجزائرية لها امتداد طويل في الزمن، وكانت إلى وقت قريب من أقوى الدول وأرقاها وذلك لا بشهادة أهلها فحسب، بل بما كان يقيمها به أعداؤها ولاسيما الطامعين فيها لأنهم يعتبرون أن ما وصلت إليه راجع إلى موقعها الجغرافي متناسين في ذلك ما يلعبه الإنسان في كل موقع جغرافي، حيث أنه هو الذي يعطيه قيمته وعظمته بغض النظر عن محتوياته، والشواهد التاريخية على ذلك عديدة لا يتسع المقام هنا لذكرها وهي واضحة لا تحتاج إلى وضوح أكثر مما هي عليه.

إن الأفكار التي اعتمدها "الأمير عبد القادر" في بناء دولته وفي ممارسته السياسية تعتبر أعظم إنجاز أنجزه العقل السياسي العربي الإسلامي في القرن التاسع عشر إذ استطاع أن يؤسس دولة تضاهي في مؤسساتها وأجهزتها وقوانينها الدول الغربية المعاصرة لها في الحداثة ،وقطع بذلك الصلة بالمفاهيم التقليدية التي كانت تؤسس عليها الدولة العربية في تاريخها الممتد في الزمن وحتى في عصره، لأن دولته حتى وإن كانت مركزية ، فإنها كانت تتميز بالقوة والحركة والفعالية بالنسبة لمواطنيها، وذلك ما لم تكن عليه يوما دولة الأتراك (9) التي كانت تتصف بالمركزية.

وبذلك فإن الأمير عبد القادر حول تلك الأفكار المتعلقة بالدولة إلى أجهزة وأدوات (10) للعمل الاجتماعي والسياسي والديني في المجتمع محاولا من خلالها إعادة الدولة الإسلامية إلى غابر مجدها الزاهر، لأن دولته انبثقت من إرادة شعبية وبيعة شرعية عكس الدولة السلطانية التي كانت سائدة آنذاك وقائمة على الحرب والمال و كانت

النموذج للدولة العربية الإسلامية مدة طويلة من الزمن وامتدت حتى عصره. والدولة السلطانية هي التي يعرفها عبد الله العروي بقوله: ((إن مفهومها هو التسلط لا يمكن تصور دولة بلا قهر ولا استئثار جماعة معينة للخبرات المتوفرة))) (11)، أما دولة الأمير" عبد القادر" فقد كانت عكس تلك الدولة لأنها كانت قائمة على نظام سياسي شرعي ومركزي مؤسساتي (12)، ولم تستأثر فيها جماعة معينة على حساب أفراد الأمة.

خامسا: أسس الدولة الحديثة عند الأمير عبد القادر:

قامت دولة الأمير عبد القادر على مجموعة من الأسس استطاعت من خلالها التميز عما كانت تقوم عليه الدولة العربية الإسلامية في وقته ،ومن بين هذه الأسس كما يحددها عبد الله شريط هي (13):

ا ـ البيعة:

لم يصل الأمير " عبد القادر " إلى الحكم عما كان متعارفا عليه في ذلك الوقت أي القوة ، بل وصل عن طريق بيعة شاركت فيها كل القبائل التي كانت تمثل في ذلك الوقت وحدة فاعلة وعملا حاسما، ومن ثمة فإن دولته لم تكن دولة سلطانية بل كانت كأداة وجهاز في يد الأمة تدافع بها عن نفسها من الاعتداءات الداخلية والخارجية ولم تكن هدفا شخصيا كما قال بذلك عن نفسه ((إنني لم أتقدم لتولي مسئولية الحكومة بمحض الطموح والرغبة في السلطة والجاه أو الحياة في ثروات الدنيا ولكن الله وحده يعلم أسرار القلوب لأحارب في سبيل الله لأحقن الدماء بين المسلمين ولأحمي أملاكهم ولأمهد البلاد كما تقتضي ذلك الغيرة على الدين والوطنية)) (14).

إن هذه الأهداف التي يقول بها الأمير "عبد القادر" هي التي حددتها شروط البيعة والتي كانت انتخابا وعقدا بينه وبين الرعية ،حيث يقول بشأنها:((انتخبوني لإدارة حكومة بلادنا وقد تعهدوا أن يطيعوا في السراء والضراء وفي الرخاء والشدة، وأن يقدموا حياتهم وحياة أولادهم فداءا للقضية المقدسة)) (15)، ومن هنا فإن دولة الأمير "عبد القادر" كانت أداة ووسيلة تتمثل في حماية الوطن والدفاع عنه ومن أجل ذلك يقول الأمير عبد القادر: ((تولينا هذه المسئولية الهامة على مضض شديد آملين أن يكون وسيلة لتوحيد المسلمين ومنع الفرقة بينهم وتوفير الأمن العام إلى كل أهالي البلاد ووقف كل الأعمال غير القانونية التي يقوم بها الفوضويون ضد المسلمين وصد وطرد للعدو الذي اعتدى على بلادنا مريدا أن يغل أعناقنا بقيوده)) (16).

من هنا يتضح أن دولة الأمير عبد القادر لم تكن إلا دولة الدين، أي الدولة التي تذوب في الدين وتعمل من أجل الوطن، هذا المبدأ الديني الوطني الذي لم ينفصل في الممارسة الجزائرية على مر العصور.

ب ـ الالتزام برأي الجماعة:

إن وصول الأمير "عبد القادر" إلى هرم السلطة في أمته ومجتمعه كان بناءا على اختيار الأغلبية من الأمة له ، وهي فكرة سياسية كانت تطالب بها كل الدعوات التحديثية للدولة في القرن التاسع عشر، وأن هذه الإرادة الجماعية لم تكن غائبة عن بال الأمير عبد القادر وعن ممارساته، إذ قال بشأنها لما خاطب سلطان المغرب: ((إن أهل ناحيتنا هذه اتفقوا أشرافا وعلماء، وأهل العقد والحل، على ولايتنا وملازمة بيعتنا وقد ارتضينا ذلك موافقة للوالد)) (17).

ومن هنا يتضح أن الأمير" عبد القادر "جسد لنا أساسا من أسس الدولة الحديثة وهي أن يختار الحاكم من الأمة أو نوابها،(18) وأن تتفاعل الأمة مع حاكمها، وذلك ما جعل عبد الباقي الهر ماسي يقول: ((ولا غرابة أن يقود المعركة ضد الفرنسيين أحد زعماء هاته الطرق في شخص الأمير "عبد القادر" عوضا عن الأتراك ويكون الأمير "عبد القادر" قد أحكم أول قاعدة للتوحيد الوطني بالرغم من قصر فترة تجربته)) (19)، وهذه المسألة هي التي كان يشيد بها الأمير عبد القادر في الممارسة السياسية الفرنسية، وهي نفس الفكرة التي قال بها رسول الله عليه وسلم (20)، وفي ذلك يقول: ((فاستوى بسياسة نظرهم الرئيس والمرءوس والشريف والمشروف والرفيع والوضيع ليجزي كل واحد على قانون الآخر ولا يختص بأحكام مفضول على فاضل ولا يقع التصرف على الأدنى لما له قلة دون الأعلى ولا يتجبر بالتكبر عالي منزلة على سافل ويجري حكم شرع الإنصاف على من تجاوزوا الحد المشروع كيف كان حسبا ونسبا، ولأن التفرقة بين الناس في الحكم هو سبب هلاك كثير)) (21).

ج ـ الدولة وروح الدين:

إن دولة الأمير عبد القادر كانت متشبعة بروح الدين الإسلامي، وليس بأحكامه الفقهية وحدها، وفي مقدمة ما يأتي من روح الدين تفضيله للجهاد والصلاة على مناسك الدين الأخرى (22)، لأن الظروف التي عاصرها اقتضت ذلك، حيث استطاع أن يكيف الدين وأحكامه لمتطلبات العصر ويفتح بذلك الباب واسعا للاجتهاد في الدين.

وبهذه الممارسة حول الأمير "عبد القادر" الدولة الجزائرية في ذلك الوقت من دولة سلطانية إلى دولة وطنية دينية، فالدولة السلطانية إضافة إلى ما قلناه سابقا هي التي تستخدم كل قواها بما فيها جيشها في الدفاع أو القمع داخليا أكثر مما توجهه خارجيا، وتفرض ضرائب مثقلة لتلبية ما تحتاجه بما لا تستطيع الرعية تحمله، فتأخذ غصبا من التاجر والفلاح والصانع، وحتى الموظف إذا غضب عليه ولي نعمته (23)، وهذه المظاهر هي التي كان يعتبرها ابن خلدون من بين عوامل زوال الدول، بينما الدولة الوطنية أو الدينية التي بناها الأمير" عبد القادر" ويقتضيها هذا المفهوم نفسه فهي التي يتوجه فيها عمل الجيش وجهده وقوته إلى الخارج لمحاربة عدوه الغازي أكثر مما يوجهه إلى الداخل، أي عكس الدولة الأولى، ولذلك فإن ما فرضته دولته من جباية وضرائب فهي التي فرضتها الشريعة الإسلامية فقط ، وكانت تلك الضرائب متمثلة في الغنائم والزكاة والعشور وغيرها مما يستوجبها الشرع، وتفرضها حاجة الدولة، ولذلك

نجح الأمير "عبد القادر" في بضع سنوات في تنظيم جيش عصري، ودولة قوية ،واخترق الحساسيات القبلية وكون جبهة قوية نسبيا، وبهذا الجيش استطاع أن ينظم حياة أمته ، وأن يؤمن لها الاستقرار ، ويلبي حاجياتها وحاجيات دولته وجيشه (24)، ولعل ذلك ما جعله دائما يفتخر بالسياسة التي كان ينتهجها مع رعيته، وهي السياسة العمرية العادلة التي يتمنى ويسعى إلى أن تكون الضوء الذي ينير دياجي الظلم والجهل(25).

د ـ ربطه بين الحكم والتوحيد:

إن الملامح الأساسية لدولة الأمير "عبد القادر " أنها إسلامية بقوانينها وتشريعاتها، لذلك فإن من مهامها الأساسية الدفاع عن الدين والوطن معا، لأنها أداة وليست غاية، فالحرب التي شنها الأمير "عبد القادر" لم تكن دفاعا عن الدين وحده، بل كانت دفاعا عن الدين والوطن معا، حيث أنه كان يؤكد مرارا على كلمة الوطن(26) وكان يعمل من أجله، لأن عمله ـ كما قلنا ـ كان موجها للخارج لمحاربة العدو وفي نفس الوقت كان موجها للداخل لبناء الوطن، إذ لم يثنيه الاستعمار وغطرسته عن بناء الوطن الذي كان يأمل في استقلاله وحريته، و كان يعتبر أن الوطن لا يمكن أن يكون وطنا إلا بقدر المنشآت التي يحتويها والوحدة التي تشمل أفراد أبنائه، ولكن العمل الوطني الذي قام به قد كان عملا جماعيا شاركه فيه أبناء الوطن كل في مجال اختصاصه، وبذلك العمل المشترك في الفعل والرأي تجسدت الديمقراطية التي كانت سمة لدولته، و لم تحتكر السلطة في يد شخص معين، ومن ثمة يمكننا تسمية دولته كما يقول عبد الله شريط بالدولة الدينية التي ترتكز على مبدأين هامين هما القرآن والجهاد (27).

إن دولة الأمير عبد القادر كانت تلبس ثوبا قديما ولكنها تتلاءم مع الحقائق الجديدة لظروف القرن التاسع عشر التي تقضي بإيجاد دولة حديثة (28)، لأن الأمير عبد القادر لم يعلن أو يوجه حربه للفرنسيين فقط بل وجهها حتى للأرستقراطيات الوراثية في بلاده، (29) سيما تلك التي كانت موالية للأتراك، والتي كانت تضعف كاهل الأمة ونتيجة لما قام به الأمير عبد القادر،انساق أحد الأوربيين للقول بأنه: ((أسس عمله على الإسلام [...] وجند الثقافة الإسلامية في إطار شرعية الجهاد، إنه أكثر من قائد سياسي إنه رجل يحفزه مبدأ الوطنيات الرومانطقية، ويجمع في شخصيته الفروسية البدوية، وإلهام الإسلام وديناميكية القرن التاسع عشر)) (30).

إننا من خلال هذه التحليلات الموجزة عن الأمير وأصالة دولته وحداثتها وما قدمه للثقافة العربية الإسلامية في عصر النهضة ، يتضح لنا أن منطلقاته كانت عربية جزائرية أصيلة في فكرها وفي ممارستها وبالتالي فإن ما قام به يعد مجهودا مميزا عن غيره من مفكري النهضة العربية الإسلامية سواء الذين ذكرناهم أو الذين لم نتعرض إليهم وهم كثيرون، وتظهر نزعته الوطنية العربية فيما كان يفتخر به من انتسابه إلى النسب العربي والأمة العربية حين قال: ((والأمم وان كانت تفي بالعهد وتستقبح الغدر والكذب، فالأمة العربية أكثر وأشد من جميع الأمم في ذلك لأنهم في جاهليتهم كانت

لهم نفوس زكية، وأخلاق مرضية، وأفعال كريمة، وهمم عظيمة، وعقول راجحة وآراء ناجحة، وشرف صميم، وأنفة من كل خلق ذميم، طبعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون بينهم النبوءة)) (31).

الهوامش

1- إن ابن خلدون يعبر في مقدمته عن أزمة عاشتها الأمة العربية الإسلامية في عصره وفي العصور التي سبقته، وبالتالي فإن ما قدمه يعد بمثابة مشروع نهضوي حضاري لتلك الأمة محاولا إعادة إحياء مجدها من جديد.

2- برهان غليون، المحنة العربية، الدولة ضد الأمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1993م، ص ص 45،44 .

3- معلوم أن خير الدين التونسي اشتغل بالسياسة كثيرا في تونس وانتقل بعدها لشغل مناصب سياسية أخرى في مقر الخلافة الإسلامية بتركيا.

4- أذكر بالخصوص، رئيف خوري، الفكر العربي الحديث أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، والبرت حورا ني، الفكر العربي في عصر النهضة، و Anouar Abd El Malek; Le pensée politique arabe contemporaine، وغيرهم كثيرون.

5 - العنوان الكامل هو: " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك " حققه المنصف الشنوفي، الدار التونسية للطباعة، تونس 1972م.

6- خير الدين التونسي، أقوم المسالك ...، ص .2

7- تظهر تأثيرات الفكر العربي الإسلامي على الأمير عبد القادر في الكثير من مؤلفاته: المقراض الحاد، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، المواقف ...الخ.

8- مولود قاسم نايت بلقاسم، استمرارية الدولة الجزائرية في نظر الأمير عبد القادر، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة الجزائرية، العدد 75، سنة 1983 م، ص .13

9- محمد عبد الباقي الهر ماسي ، المجتمع والدولة في المغرب العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1987م، ص 30 .

10 -عبد الله شريط، مشكلة الحكم في دولة الأمير عبد القادر ونظرية الشيخ ابن باديس ،الثقافة، العدد75،ص.273

11- عبد الله العروي، مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، سنة 1983م، ص 108 .

12 - محمد عبد الباقي الهر ماسي، المجتمع والدولة في المغرب العربي، ص 30 .

13- للمزيد من الإطلاع على ما كتبه عبد الله شريط في هذا الموضوع يرجى مراجعة مقاله المعنون ب: مشكلة الحكم في دولة الأمير عبد القادر ونظرية الشيخ ابن باديس ،الثقافة، العدد75، 1983م.

14- شارل هنري تشر شل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمه وقدم له أبو القاسم سعد الله ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2 سنة 1982م، ص 156.

15- المرجع نفسه، ص .59

16- المرجع نفسه، نفس الصفحة.

17- الأمير عبد القادر، المذكرات، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849م، تحقيق محمد صغير بناني، محفوظ سماتي، محمد الصالح الجون ، شركة الأمة، الجزائر 1994م، ص .96

18- لقد كان هذا المطلب يتكرر مرارا في كتابات الأفغاني ومحمد عبده وخير الدين التونسي، وغيرهم من رواد النهضة العربية الإسلامية.
19- محمد عبد الباقي الهر ماسي، المجتمع والدولة في المغرب العربي، ص.30
20- جاء حديث الرسول صلى الله عليه سلم في هذا المعنى: ((إنما هلك من كان قبلكم إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها))
21- الأمير عبد القادر، المذكرات ، ص 136 .
22- عبد الله شريط، مشكلة الحكم في دولة الأمير عبد القادر ونظرية الشيخ ابن باديس، ص ص 237، 238 .
23- عبد الله العروي، مفهوم الدولة، ص .129
24- محمد عبد الباقي الهر ماسي، المجتمع والدولة في المغرب العربي، ص.30
25- فؤاد صالح السيد ، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985م، ص196. ويمكن أيضا الإطلاع على شعره السياسي الدال على سياسته العادلة في ديوانه، شرح وتحقيق ممدوح حقي دار اليقظة العربية، بيروت،ط2 1966م، ص60 وما بعدها.
26- عبد الحميد بن هدوقة ، الأمير عبد القادر والمجابهة اللامتكافئة، الثقافة، العدد 75، ص.197
27- عبد الله شريط، مشكلة الحكم في دولة الأمير عبد القادر ونظرية الشيخ ابن باديس، ص 239.
28- المرجع نفسه، ص 240 .
29 - محمد عبد الباقي الهر ماسي، المجتمع والدولة في المغرب العربي، ص.30
30- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص .59
31- الأمير عبد القادر الجزائري، المقراض الحاد لقطع منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد، الطاسيلي للنشر والتوزيع، الجزائر، 1989م، ص 243. □